Al-Daleel
مؤسسة الدليل للدراسات والبحوث العقدية
Al-Daleel Institution for Doctrinal Studies

Secularism and the reasons for its appearance in the Renaissance era.. reviewing and criticism

Furqan Abdul-Imam

Ph.D. in Islamic Philosophy, Aalul-Bayt University, Iraq. E-mail: q66255090@gmail.com

Summary

Secularism is defined as a principle based on denying the authority of religion or its authority in managing some or all of people's affairs. This is based on the authority of man to realize the truth and benefit inherent in this world. Secularism had appeared in the era of the European Renaissance and Enlightenment. One of the most important reasons that had led to the appearance of secularism was the church's struggle with science, the second was the French Revolution, and the third was the theory of evolution. Secularism underwent two stages; the first was the moderate secularism and the second was the excessive secularism. Secularism is divided into two kinds: the first is the comprehensive Secularism and the second is the partial Secularism. The reasons for its appearance were of two kinds: one was social reasons, the first of which was the conflict between the Church and science, and the second was the French revolution. The other kind of reasons was an epistemological reason, and it was not but the theory of evolution. We have criticized the epistemological reason, and criticized the premises on which secularism had relied. The first of those premises was the empirical sensitive approach, the second was humanism, and the third was the epistemological ethical relativism. These premises are incomplete and can be rationally criticized.

Keywords: secularism, Renaissance, European Enlightenment, partial secularism, comprehensive secularism.

Al-Daleel, 2022, Vol. 5, No. 3, PP.58-81
Received: 20/8/2022; Accepted: 9/9/2022
Publisher: Al-Daleel Institution for Doctrinal Studies
©the author(s)

مؤسسة الدليل للدراسات والبحوث العقدية
Al-Daleel Institution for Doctrinal Studies
الدليل Al-Daleel

العلمانية وأسباب نشأتها في عصر النهضة والتنوير الأوروبي.. عرض ونقد

فرقان عبد الامام

دكتوراه في الفلسفة الاسلامية، جامعة آل البيت، العراق. البريد الإلكتروني: q66255090@gmail.com

الخلاصة

تعرف العلمانية، بأنّها مبدأ يقوم على إنكار مرجعية الدين أو سلطانه في تنظيم شؤون الناس، بعضها أو كلّها، انطلاقًا من مرجعيته الإنسان لإدراك الحقيقية والمنفعة الكامنتين في هذا العالم، وظهرت في عصر النهضة والتنوير الأوروبي، ومن أهم الأسباب التي أدت الى ظهور العلمانية منها صراع الكنيسة مع العلم، والثاني الثورة الفرنسية، والثالث نظرية التطور. ومرّت بمرحلتين، الأولى: العلمانية المعتدلة، والثانية: العلمانية المفرطة، وتقسم إلى قسمين: الأوّل: الشاملة، والثاني: الجزئية، وأسباب ظهورها، وهي على قسمين: القسم الأوّل: أسباب اجتماعية، وهي: الأوّل: الصراع بين الكنيسة والعلم، والثاني: الثورة الفرنسية، والقسم الثاني: سبب معرفي، وهو نظرية التطور، وقمنا بنقد السبب المعرفي، الذي هو عبارة عن علاقة نظرية التطور والفكر العلماني، وأيضًا قمنا بنقد المباني التي اعتمدت عليها العلمانية:الأوّل: المنهج الحسّي التجريبي، والثاني: الانسنة، والثالث: النسبية المعرفية والأخلاقية. وهي مباني غير تامّة ويمكن نقدها عقليًّا.

الكلمات المفتاحية: العلمانية، عصر النهضة، التنوير الأوروبي، العلمانية الجزئية، العلمانية الشاملة.

مجلة الدليل، 2022، السنة الخامسة، العدد الثالث، ص. 59_81

استلام: 2022/8/20 ، القبول: 2022/9/9

الناشر: مؤسسة الدليل للدراست والبحوث العقديّة

© المؤلف

CC BY NC

المقدّمة

الفكر العلماني من الأفكار المهمة والخطيرة وذات الجدل الواسع، وأصبحت في المنظومة الفكرية الغربية نهاية تاريخ الفكر السياسي، حيث على مدى قرنين كاملين قدّم الغرب هذا الفكر على أنّه نهاية الفكر، وأنّه الحل الذي لا يحتاج إلى حلٍّ غيره، وأنّ التشكيك فيه تشكيك في الخطوط الحمر للإنسان، من القيم والمبادئ والاعتقادات، وهذا الفكر لم يظل حبيس القارة الأوروبية وحسب، بل وصل إلى جميع العالم، وبالخصوص العالم الإسلامي والدول العربية، حيث عمل أحد المواقع إحصائيةً في عام 2014 في العلاقة بين الدين والدولة والفصل بينهما، وهذه الإحصائية جرت في أربعة عشر بلدًا عربيًّا، وظهرت من هذه الإحصائية نتائج كبيرة وخطيرة، فنسبة 51٪ يعتقدون بأفضلية فصل الدين عن الدولة، ولم يعارض ذلك غير 41٪، و30٪ يعتقدون أنّ الشريعة الإسلامية ملائمة للحكم والسلطة، وهؤلاء انقسموا إلى قسمين: القسم الأوّل الذي بلغ النصف قائل بأنّ الشريعة ملائمة لحدٍّ ما للدولة، والقسم الثاني قائل بأنّ الشريعة ملائمة للحكم والسلطة جدًّا، و61٪ قائل بأنّ الشريعة غير ملائمة تمامًا إلى السلطة والحكم، وذكر 43٪ أنّهم يخافون من الحركات الإسلامية السياسية، و40٪ قائل إنّهم لا يخافون من الحركات الإسلامية، وأمّا 37٪ فإنّهم يخافون من الحركات العلمانية، والشرائح التي جرى عليها الاختبار شكّل المتدينون منها 87٪، وغير المؤمنين 4٪ [عامري، العلمانية طاعون العصر، ص 16]، ومن هذا نستكشف مدى خطورة هذا الفكر الذي يحاولون تطبيقه في كلّ أرجاء المعمورة.

ومن خلال المنهج التحليلي النقدي نحاول بيان ماهية العلمانية وأسباب ظهورها والمباني التي تعتمد عليها ونقدها، على الشكل التالي:

المحور الأوّل: البحوث التمهيدية

أوّلًا: معنى العلمانية

العلمانية اصلاح كثر الكلام والجدل فيه، حتّى قال بعض المفكّرين، من الأفضل أن نغيّر هذا الإصطلاح إلى "نزع القداسة" أو "الواحدية المادّية"، لكن لشيوع هذا الاصطلاح وتعارفه بين الناس بقى عليه، [المسيري، العلمانية الجزئية والشاملة، ج 1، ص 48]؛ لذلك نحاول أن نقتصر على

التعاريف المهمّة منه، فمفردة العلمانية لم ترد في الكتب اللغوية القديمة، وأمّا في الكتب الحديثة، فالعلمانية: اصطلاح مترجم من كلمة (Secularism) في اللغة الإنجليزية، واستعمل هذا الإصطلاح بلسان آباء الكنيسة بمعنى العالم الزمني، ثمّ تطوّر هذا الاصطلاح واستخدم بمعنى "ما ليس كنسيًّا ولا دينيًّا"، وهو خلاف الديني أو الكهنوتي [مجموعة مؤلفين، المعجم الوسيط، ج 2، ص 624]، أو العامّي الذي ليس بإكليريكي، والكيرُس أو الإكليرَس: جماعة مفرزون ومكرّسون لخدمة الكنيسة المسيحية كالشمامسة والقساوسة والأساقفة ويقابلهم العلمانيون، يونانيتها: كليرس ومعناه قُرعة؛ لأنّهم كانوا في القديم ينتخبون بالقُرعة، الواحد إكليريكي جمعه كليريكيون [البستاني، محيط المحيط قاموس مطول للغة العربية، ص 628]، وقد أطلق هذه المصطلح لأوّل مرّة في عام 1648 م، عند نهاية حرب الثلاثين عامًا، وهو بداية تاريخ نشوء الدولة الحديثة وتكوّنها. [المسيري، العلمانية تحت المجهر، ص 11]

وأوّل من استعمل هذا المصطلح بمعناه المتعارف اليوم الكاتب الإنجليزي جورج هوليوك (George Holyoake) في عام (1851)، وأراد منه فصل النظام الاجتماعي عن السلطان الديني [Holyoake, The Origin and Nature of Secularism, p. 51]، وعرّفت أيضًا بأنّها: فصل الدين والمعتقدات الدينية عن السياسة والحياة العامة [انظر: الناهي، المصطلحات الخاصة بالمنظمة العربية، ص 206]، وأيضًا: هي العقيدة التي ترى إبعاد الدين عن الدولة والتعليم والأخلاق، وأن تكون جميعها مستقلّةً وبعيدةً عن تأثير الكنيسة والمؤسّسات الدينية، وأن يرى الإنسان أنّ العقل هو المصدر لا الدين، وبالتالي رفض كلّ الغيبيات وما وراء الطبيعة [الباز، العلمانية جذورها وأصولها، ص 11]، وكذلك عُرّفت: بأنّها إقصاء المعرفة الدينية عن مجال الحياة والسياسة، فالحكومة العلمانية هي: الحكومة التي لا منافاة بينها وبين الدين، ولكنّها لا تجعل الدين أصلًا لمشروعيتها ولا أساسًا لبرنامج عملها [سروش، مدارا و مديريت، ص 423]، وتعرّف دائرة المعارف البريطانية «العلمانية: بأنها حركةٌ اجتماعية تهدف إلى صرف الناس عن الاهتمام بالآخرة إلى الاهتمام بالحياة الدنيا وحدها» [محمد قطب، مذاهب فكرية معاصرة، ص 445]، وقد قسّمت دائرة المعارف الإلحاد إلى قسمين: إلحاد نظري، وإلحاد عملي، وجعلت العلمانية ضمن الإلحاد العملي.

وورد في دائرة المعارف الأمريكية أنّ: «العلمانية الدنيوية هي: نظام أخلاقي أُسّس على مبادئ الأخلاق الطبيعية، ومستقلٌّ عن الديانات السماوية، أو القوى الخارقة للطبيعة» [علي جريشة، الاتّجاهات الفكرية المعاصرة، ص 85].

فالعلمانية في الاصطلاح: هي دعوةٌ إلى إقامة الحياة على غير الدين، وتعنى في جانبها السياسي بالذات اللا دينية في الحكم، وهي اصطلاح لا صلة له بكلمة العلم والمذهب العلمي. [الجهني، الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة، ص 36]

والتعريف المختار والشامل لأقسام العلمانية التي سوف تأتي، يكون على النحو التالي: «مبدأ يقوم على إنكار مرجعية الدين أو سلطانه في تنظيم شؤون الناس، بعضها أو كلّها، انطلاقًا من مرجعية الإنسان لإدراك الحقيقية والمنفعة الكامنتين في هذا العالم» [عامري، العلمانية طاعون العصر، ص 99].

وأمّا مفردة العلمانية من ناحية الجذر اللغوي، فيوجد تحقيق للدكتور سامي عامري، في كتابه "العلمانية طاعون العصر"، حيث يذكر فيه أنّ لفظ "علماني" لفظ خاطئ وأن الصحيح بزيادة الألف "العالماني"، ويذكر الكثير من الأدلّة على ذلك، ومنها ما ذكره المستشرق برنارد لويس (Bernard Lewis)، حيث قال: «انتشار التأثير الغربي اعتبارًا من القرن التاسع عشـر جعل المسيحيين الناطقين بالعربية ـالذين كانوا كثيرًا ما يتلقّون تعليمهم في المدارس الغربية، والذين كانوا أكثر انفتاحًا على الأفكار الغربية ـ يضطلعون بدورٍ رئيسٍ في نقل الأفكار. فكان أن قدّم المعجم المسيحي جانبًا مهمًّا من المفردات الجديدة التي أسهمت في تشكيل العربية المعاصرة. وكان من المصطلحات المسيحية التي شاع استعمالها مصطلح "عالماني" الذي تحوّل فيما بعد إلى "علماني"، ويعني حرفيًّا: ما له علاقة بالعالم؛ أي: دنيوي. وأصبحت الكلمة مرادفة لمصطلح: الزمني، وغير الديني، وغير الكنسي جميعًا. وابتدعت في وقتً لاحق كلمةٌ دخيلةٌ مترجمةٌ هي "روحاني" المشتقّة من "روح" للدلالة على المعنى المضادّ. ومن عهد قريب، نسي الناس أصل كلمة "عالماني" واشتقاقها المسيحي، وحرّفوها في النطق إلى "علماني" المشتقّة من "العِلم". وأسيء فهمها؛ إذ أصبحت تشير إلى مذهب من يزعمون وجود تعارضٍ بين العلم البشري والتنزيل الإلهي» [عامري، العلمانية طاعون العصر، ص 59 و60].

ثانيًا: عصر النهضة (Renaissance)

اتّفق المؤرّخون على أنّ أوروبّا عاشت فترةً طويلةً من التخلّف والظلام والجهل، وسمّيت هذه الفترة بعصر القرون الوسطى أو العصر الوسيط، والذي امتدّ حتّى أواسط القرن الخامس عشر، وفي رأي آخرين إلى أواسط القرن السابع عشر، وبغضّ النظر عن التحديد للمدّة الزمنية، ففي أواخر هذا العصر شهد تغيير شديد الأهمية أدّى إلى انتقال القارّة الأوروبّية إلى عصر جديد وحافل بالتقدّم، من حيث الأحداث التاريخية والاجتماعية والفكرية والإصلاح الديني والثورات والتطوّرات العلمية والصناعية والإنتاج الحرفي والزراعي، التي تركت أثرها إلى زماننا الحالي، وإنّ التغيّر والتجديد لم يكن اعتباطيًّا، بل كان له أسباب ومؤثّرات أدّت به إلى هذا الشكل الجديد الذي لم يكون موجودًا في المدّة التي امتدّت من القرن الحادي عشر إلى القرن الخامس عشر، فالخبرة التراكمية التي أدّت إلى الإنتاج المادّي وتسريع عملية تراكم المال في البلدان الأوروبية، ولعدّة عوامل وأسباب أخرى ظهر عصر النهضة الذي هو عبارة عن حركة ثقافية انتشر فيها التجديد والازدهار في التعليم والإصلاح التعليمي، والتطوّر في السياسة، وفي الأدب باللغات المحلّية، وفي الفلسفة، وفي التقنيات الصناعية، وهذا العصر هو الواسطة في انتقال أوروبا من العصر الوسيط الى العصر الحديث، ولهذا العصر رواد ومؤسسون كثيرون، كفرانشيسكو بتراركا أو بترارك (Francesco Petrarca)، الذي كان يلقب بأبي الإنسانية، وليوناردو دافينتشي (Leonardo da Vinci)، الذي كان مشهورًا بالهندسة والفنّ والنحت والموسيقى وفي الفلك والرياضيات والفيزياء والجيولوجيا وكثير من الفنون والعلوم، و ميكيلانجيلو بوناروتي (Michelangelo Buonarroti)، الذي كان معروفًا بالشعر والرسم والنحت والهندسة، وكثير من رجال الفن والعلم والثقافة، ومن أهمّ إنجازات عصر النهضة هو جلب التراث الإغريقي بتمامه إلى الغرب، وقام مانويل كرايسالريس (Manuel Chrysoloras) بتدريس اليونانية في مدارس فلورنسا، وربطها بالمناهج الدراسية الأوروبية، حيث دمجت النصوص الإغريقية الأدبية واللاهوتية والتاريخية في المناهج الأوروبية. [انظر: البعلبكي، معجم أعلام المورد، ص 402؛ كمال مظهر أحمد، النهضة، ص 5 ـ 11]

ثالثًا: عصر التنوير الأوروبي (Age of Enlightenment)

هو حركة فكرية وثقافية وسياسية واجتماعية وفلسفية، هيمنت على عالم الأفكار في القارة الأوروبية خلال القرنين السابع والثامن عشر في أوروبا، وبدايته من إنجلترا، ولكن الدور الكبير كان في فرنسا، وكان شعار رجال التنوير حقوق الإنسان، ومنهجهم في قبول الحقائق العقل، والهدف من هذه الحركة قمع الفكر الكنيسي المتسلّط والذهاب إلى سلطة العقل، وخلق مجتمع يتمتّع بالحرّية والمساواة والعدالة، ويقرّر مصيره بنفسه، وأوّل من عرف التنوير الأب مسيلي (1725 م) في كتابه "الوصية"، حيث قال: «إنّ نور العقل الطبيعي هو وحده الكفيل بأن يقود الناس إلى الحكمة والكمال العقلي» [السني، الثورة وبريق الحرّيّة، ص 95]، وعرّف كثير من الفلاسفة التنوير، حيث عرّفه موسى مندلسون (Mendelssohn Moses): «إنّ كلًّا من المعرفة والثقافة والتنوير تعديل للحياة الاجتماعية ... ويندرج تحت المعرفة كلّ من الثقافة والتنوير. وتهتم الثقافة بالجانب العملي ... بينما يهتمّ التنوير بالجانب النظري، أي يهتمّ بالمعرفة العقلانية والموضوعية وقدرة الذات على التفكير في الأشياء الموجودة في الحياة الإنسانية تبعًا لأهمّيتها وتأثيرها في تحقيق حياة الإنسان» [المصدر السابق]، وأيضًا الفيلسوف الألماني عمانوئيل كانط (Immanuel Kant)، إذ أجاب عن ماهية التنوير في مقال نشر له في مجلّة برلين سنة 1784 م، تحت عنوان "ما هو التنوير؟" وقال فيه: «إنّه خروج الإنسان عن مرحلة القصور العقلي وبلوغه سنّ النضج أو سنّ الرشد» [المصدر السابق]، وعرف القصور العقلي بأنّه: «التبعية للآخرين وعدم القدرة على التفكير الشخصي أو السلوك في الحياة أو اتّخاذ أيّ قرار بدون استشارة الشخص الوصي علينا» [إريك هوبزباوم، عصر الثورة، ص 436]، وقام بصرخة مدوية قال فيها: «اعملوا عقولكم أيّها البشر! لتكن لكم الجرأة على استخدام عقولكم! فلا تتواكلوا بعد اليوم ولا تستسلموا للكسل والمقدور والمكتوب. تحرّكوا وانشطوا وانخرطوا في الحياة بشكل إيجابي متبصر، فالله زوّدكم بعقول وينبغي أن تستخدموها» [المصدر السابق]، والمبدأ الأساسي في التنوير عند كانط: «كن شجاعًا واستخدم عقلك» [السني، الثورة وبريق الحرية، ص 95]، ومن أهمّ مميّزات هذا العصر ظهور الثورات، كالثورة الفرنسية، وأيضًا ظهور حركات فكرية كثيرة، وتيّارات فلسفية كبيرة، كفلسفة ديكارت (René Descartes)، الذي يعدّ أبا الفلسفة الحديثة، وفلسفته قائمة على الشكّ، ومن خلال الشكّ يبدأ ببناء الرؤية الكونية، وأولى المراتب التي يبني عليها هرم الوجود (الكوجيتو) «أنا أفكر إذن أنا موجود»،

ويعتبر ديكارت أوّل من فصل بين الذات والواقع؛ لذلك ظهرت بعده فلسفات، كالفلسفة التجريبية الحسّيّة، وأبرز فلاسفتها جون لوك (John Locke) وباركلي (George Berkeley) وديفيد هيوم (David Hume)، والفلسفة العقلية، وأبرز فلاسفتها سبينوزا (Baruch Spinoza) ولايبنتز (Leibniz Gottfried)، وصار الصراع بينهما، وهؤلاء الفلاسفة أول من قاموا بفصل الدين عن الدولة، ففي كلمات الفيلسوف العقلاني الهولندي باروخ سبينوزا (1632ـ1677) الذي يمثّل أبرز الفلاسفة الذين اعتقدوا بالفصل بين السلطة والحكومة والدين، حيث يقول في كتابه "رسالة في اللاهوت والسياسة": «لا يلائم نظام الحكم الثيوقراطي[1] إلّا شعبًا معزولًا يريد أن يعيش دون علاقات مع الخارج. مغلقًا على نفسه داخل حدوده، ومنفصلًا تمامًا عن باقي العالم، لا شعبًا يدخل بالضرورة في علاقات مع الشعوب الأخرى» [سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، ص 411]، ويقول في نصٍّ آخر له: «ومن الخطورة على الدين وعلى الدولة على السواء إعطاء من يقومون بشؤون الدين الحقّ في إصدار القرارات أيًّا كانت، أو التدخّل في شؤون الدولة وعلى العكس يكون الاستقرار أعظم إذا اقتصروا على الإجابة على الأسئلة المقدّمة إليهم والتزموا في أثناء ذلك بالتراث القديم الأكثر يقينًا والأوسع قبولًا بين الناس» [المصدر السابق، ص 426] ويقول الفيلسوف جون لوك في رسالته الشهيرة عن "التسامح" سنة 1689 م: «أقول من أجل هذا كلّه ينبغي التمييز بدقّة ووضوح بين مهام الحكم المدني والدين، وتأسيس الحدود الفاصلة والعادلة بينهما، وإذا لم نفعل هذا فلن تكون هناك نهاية للخلافات التي ستنشأ على الدوام بين ما يملكون الاهتمام بصالح نفوس البشر من جهة، ومن يهتمون بصالح الدولة من جهة أخرى» [جون لوك، رسالة في التسامح، ص 23]، ويقول في نص آخر: «من أجل الوصول إلى دين صحيح، ينبغي على الدولة أن تتسامح مع جميع أشكال الاعتقاد دينيًّا أو فكريًّا أو اجتماعيًّا، ويجب أن تنشغل في الإدارة العملية وحكم المجتمع فقط، لا أن تنهك نفسها في فرض هذا الاعتقاد ومنع ذلك التصرّف، يجب أن تكون الدولة منفصلة عن الكنيسة، وألّا يتدخّل أيٌّ منهما في شؤون الآخر، هكذا يكون العصر هو عصر العقل، ولأوّل مرّة في التاريخ البشرى سيكون الناس أحرارًا، وبالتالي قادرين على

1- مصطلح (ثيقراطية) مأخوذ من اللغة اليونانية، وهو مركب من مفردتين، الأولى: هما ثيو وتعني الدين، والثانية: قراط وتعني الحكم، والمراد من هذا الاصطلاح حكم رجال الدين، أو حكم الدولة المستند إلى الإله.

إدراك الحقيقة» [المصدر السابق، ص 26]، واعتبر البعض ان هذه الرسالة هي التي شيدت العلمانية في القرن السابع عشر، وقام بفصل بين الحكومة والسلطة والدين.

المحور الثاني: مراحل العلمانية

مرت العلمانية بمرحلتين:

المرحلة الأولى: العلمانية المعتدلة

ظهرت في القرن السابع عشر والثامن عشر، وإن كان فيها الدين أمرًا شخصيًّا فرديًّا، ولكن لم تسلب العلمانية كلّ القيم الخاصّة بالدين المسيحي، بل قام بقبول بعض مبادئها، وقام بإخضاع الدين المسيحي للعقل، وليس للدولة أيّ علاقة ورابطة به، إلّا أنّ الدولة لا بدّ لها من حماية الكنيسة وحماية ضرائبها، ومن أبرز روادها فولتير (Voltaire) (1694 ـ 1713 م) في فرنسا، حيث يقول: «هناك قانون طبيعي مستقل على الاتّفاقات الإنسانية ... يبدو لي أنّ معظم الناس قد أخذوا من الطبيعة حسًّا مشتركًا لسنّ القوانين» [فولتير، قاموس فولتير، سلسلة تراث الإنسانية، ج 8، ص 207].

ويقول في نص آخر: «إنّ دين أهل الفكر دين رائع خالٍ من الخرافات والأساطير المتناقضة وخالٍ من العقائد المهينة للعقل والطبيعة ... لقد منع الدين الطبيعي آلاف المرّات المواطنين من ارتكاب الجرائم ... أمّا الدين المصطنع فإنّه يشجع على جميع مظاهر القسوة ... كما يشجّع على المؤامرات والفتن وعلى أعمال القرصنة وقطع الطريق ... ويسير كلّ فرد نحو الجريمة مسرورًا تحت حماية قدّيسه» [المصدر السابق].

وجان جاك روسو (Jean-Jacques Rousseau) صاحب كتاب "العقد الاجتماعي" الذي أطلق عليه إنجيل الثورة الفرنسية. [المسيري، العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ص 16]

المرحلة الثانية: العلمانية المفرطة

تسمّى بالثورة العلمانية، وهي ظهرت في العهد المادّي الحسّي وفي القرن التاسع عشر وما بعده، وأبرز من قال بها الفيلسوف كارل ماركس (Karl Marx)، وفيورباخ (Ludwig Feuerbach) وهي أشدّ من المرحلة الأولى حيث قامت بإلغاء وفصل الدين بالكلّيّة، وأدّى هذا إلغاء الى ظهور السلطة الفردية

التي هي سلطة جماعة العمل أو المجتمع أو الدولة أو الحزب، يقول ويلز: «يناصبون الأديان عداوةً عمياء» [انظر: سفر الحوالي، العلمانية.. نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة، ص 165]، ويقصد من ذلك الكتّاب الذين كتبوا دائرة المعارف بزعامة ديدرو (Denis Diderot).

المحور الثالث: أقسام العلمانية

قسمت العلمانية إلى قسمين:

القسم الأوّل: العلمانية الشاملة

هي فصل القيم الإنسانية والأخلاقية والدينية عن الحياة في جانبيها العامّ والخاصّ، فتجعل من العالم مادّةً من دون قداسة ولا قيم، فهي تتعامل مع الرؤى الكلّيّة والنهائية، ويتفرّع منها نتائج خطيرة، فتكون أداتها المعرفية والمنهجية ومصدر معرفتها الحسّ والمادّة، وأيضًا المصدر الأخلاقي عندها المعرفة المادّية، والإنسان عندها عبارة عن جسد ومادّة خالية من كلّ بعد مجرد وروحاني. [انظر: المسيري، العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ص 16؛ عامري، العلمانية طاعون العصر، ص 69]

القسم الثاني: العلمانية الجزئية

تعني فصل الدين عن الدولة، ولا تتعامل مع الرؤى الكلية والشاملة والنهائية؛ لذلك سمّيت بالجزئية؛ لأنّها لا تنكر الكبريات الكلية، بل تحدّد جزءًا من المنظومة المعرفية وتقيدها، وظهرت في المراحل الأولى من مراحل العلمانية التي ظهرت في الغرب، ولكنّها همّشت وتلاشت في المراحل المتأخّرة لتطوّر العلمانية؛ لأنّ العلمانية تطوّرت وشملت كثيرًا من مجالات الحياة، سواءٌ كانت السياسية أو الاقتصادية والاجتماعية، ودخلت في كلّ شيء، وصارت القانون الرسمي لكثير من بلدان العالم. [انظر: المسيري، العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ص 16؛ عامري، العلمانية طاعون العصر، ص 69]

المحور الرابع: أسباب نشأة العلمانية

1ـ الأسباب الاجتماعية

الأوّل: صراع الكنيسة والعلم

كانت أوروبا في فترة حكم الكنيسة، تعيش ظروف قاهرةً وقاسيةً، حيث طغى رجال الكنيسة أشدّ الطغيان، إذ شمل جميع النواحي سواء كانت اقتصاديةً أو علميةً أو دينيةً أو اجتماعيةً، وكلّ هذا تحت غطاء القداسة والرهبنة والعبادة، فكانت الكنيسة تتدخّل في كلّ شيء، وتفرض شريعتها المحرّفة على كلّ الناس، كتحريف وحدانية الله الواحد والقول بالأقانيم الثلاثة (الأب والابن وروح القدس)، وفرضت هذه العقيدة بالإجبار وجعلت اللعن على مخالفها، وسفكت الدماء على هذه العقيدة المحرفة، وعذّبوا مخالفيها بأشدّ أنواع التعذيب والويلات. [انظر: الحوالي، العلمانية.. نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة، ص 36؛ أحمد شبلي، المسيحية، ص 256]

وأيضًا كثير من العقائد التي جعلت الناس في مقابل الكنيسة كالتعميد والعشاء الربّاني والخمر الذي يرمز إلى دم المسيح الذي سفك، وعقيدة الصليب وحمله، وتقديس الناس له، وأيضًا عقيدة الخطيئة الموروثة، التي تعدّ من أوضح العقائد بشاعةً وخطأً؛ إذ يعذّب الله ﷻ البشرية بسبب خطإ النبيّ آدم ﷺ الذي يمثل الأب بالنسبة إلى البشرية جمعاء، ثمّ جاء المسيح عيسى ﷺ ليضحّي ويصلب ويكفّر عن ذنب النبي آدم ﷺ والبشرية كافّةً. [أحمد شلبي، المسيحية، ص 169؛ محمد أبو زهرة، النصرانية، ص 129]

والكنيسة أيضًا وافقت على النظام الإقطاعي، حيث وصلت الأملاك الإقطاعية حدًّا لا يتصور، يقول المؤرخ الشهير ديورانت (William Durant) في كتابه "قصّة الحضارة": «أصبحت الكنيسة أكبر ملاك الأراضي وأكبر السادة الإقطاعيين في أوروبا، فقد كان دير "فلدا" مثلًا يمتلك 15000 قصر صغير، وكان دير "سانت جول" يملك 2000 من رقيق الأرض، كان الكوين فيتور أحد رجال الدين سيّدًا لعشرين ألفًا من أرقّاء الأرض، وكان الملك هو الذي يعيّن رؤساء الأساقفة والأديرة ... وكانوا يقسمون يمين الولاء لغيرهم من الملّاك الإقطاعيين، ويلقبون بالدوق والكونت وغيرها من الألقاب الإقطاعية ... وهكذا أصبحت الكنيسة جزءًا من النظام الإقطاعي. وكانت أملاكها الزمنية: أي المادّية، وحقوقها

والتزاماتها الإقطاعية ممّا يجلّل بالعار كلّ مسيحي متمسّك بدينه، وسخرية تلوكها ألسنة الخارجين على الدين، ومصدرًا للجدل والعنف بين الأباطرة والباباوات» [ديورانت، قصة الحضارة ج 14، ص 425].

وأنشأت الكنيسة محاكم للتفتيش وملاحقة حملة الأفكار المخالفة لهم، وأبرز مصداق لذلك نيكولاس كوبرنيكوس (Nicolaus Copernicus) الذي قال بمركزية الشمس، بخلاف ما كان سائد من مركزية الأرض، فحكم عليه بالإعدام لأنّه مخالف لأفكار الكنيسة، وأيضا جوردانو برونو (Giordano Bruno)، الذي اعتقد بأنّ النظام الشمسي واحد، وهو تغطي جميع الكون، وأن الكون لا نهائي، وأيضًا حكم عليه بالهرطقة بتهمة إنكار العقائد الكاثوليكية، وغاليليو غاليلي (Galileo Galilei) الذي صنع تلسكوبًا استوحى فكرته من نظرية كوبرنيكوس، ونتيجة ما تقدّم أدّى بالناس إلى النفور من الدين والكنيسة، وإلى وقوف أوروبا ضدّ الكنيسة وطغيانها. [انظر: سيد أحمد فرج، جذور العلمانية، ص 12؛ القفاري، الموجز في الأديان والمذاهب المعاصرة، ص 103]

الثاني: الثورة الفرنسية عام 1789 م

تعدّ أوّل ثورة ليبرالية في التاريخ، ودامت عشر سنوات، وكان لفلاسفة عصر التنوير الأثر الكبير في هذه الثورة كفولتير ومونتيسكيو (Montesquieu) وجان جاك روسو، وشعار هذه الثورة: الحرّية والمساواة والإخاء، و"اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسّيس"! وظهور هذه الثورة يرجع إلى عدّة أسباب: [الحوالي، العلمانية.. نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة، ص 172]

أ- النظام الملكي الفرنسي الظالم.

ب- النظام الاقتصادي المجحف، ويعدّ من أهمّ أسباب قيام الثورة؛ إذ إنّ النظام الاقتصادي نظام اقطاعي، والكنيسة أكبر الملّاك الإقطاعيين، ومن هذا وجدت في تلك الفترة طبقتان: 1- الأسرة المالكة والحاكمة والأشراف. 2- طبقة رجال الدولة والباباوات، فاتّحد الباباوات والأشراف ضدّ الفقراء الفلّاحين!

جـ- قيام الثورة الأوروبية واحتكاك الشعب الأوروبي بالمسلمين، وأبرز واتم مصداق للاحتكاك الحروب الصليبية.

دـ ومن أهم الأسباب لقيام الثورة في فرنسا قربها الجغرافي من العالم الإسلامي (الأندلس)، والبعد عن مركز البابوية في روما، ففي سنة 1787 م فرضت الدولة ضرائب جديدة مجحفة على الفقراء، فصار الجوع والعطش ونقص المؤن، ونتيجة ذلك اتّفق العمال والطبقات الفقيرة والمتوسطة البورجوازية على السيطرة على الدولة وأخذ الحق منها، وانتهت بسيطرة البورجوازية من خلال التحالف مع نابليون. [انظر: هوبزباوم، عصر الثورة، ص 439]

وتمخّضت عن الثورة نتائج بالغة الخطورة، فقد ولدت لأوّل مرّة في تاريخ أوروبا المسيحية دولة جمهورية، لا دينية، ذات قانون ليبرالي، وتطالب بحقوق الإنسان، وجعل الحكم جمهوريًّا بدل الحكم الملكي، وانتزاع الملك والإرث من الحكام ورجال الكنسية، وأن الإنسان هو المحور بدل الله تعالى، وتركّز على الحرّيّة الشخصية والدينية بدلًا من دين الكنيسة، وأنّ معيار الأخلاق هو الإنسان والاجتماع وليس الدين، وأنّ الدين وضعي بدلًا من دين الباباوات. [انظر: القفاري، الموجز في الأديان، ص 76]

وهذه الثورة صارت مفتاح للثورات التي بعدها، حيث شهدت أوروبا الكثير من الثورات بعد هذه الثورة، ومن الطبيعي أنّ مثل هذا التغيير ـ الذي حصل في كلّ شيء نتيجة الثورة ـ يؤدّي إلى خلل في منظومة الاخلاق والقيم والمبادئ، وشهدت أوروبا في هذه الفترة العديد من الاتّجاهات الفكرية غير المنضبطة، ونتيجة هذا صار ينظر إلى الدين كأنّه تراث قديم لا بدّ أن يوضع في المتحف الحجري [الحوالي، العلمانية.. نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة، ص 176]، وامتدّ تأثير هذا القرن على ما بعده، حيث أثّر في ظهور نظرية التطوّر التي ظهرت في القرن التاسع عشر.

2ـ السبب المعرفي: نظرية التطوّر

بعد رحلة طويلة دامت لسنوات ألّف تشارلز داروين (Charles Darwin) كتاب "أصل الأنواع" سنة 1859 م، وبسب التفسيرات الباطلة التي فسرت هذه النظرية، التي أحدثت انقلابًا فكريًّا وعمليًّا في الكثير من المعارف والعلوم، وأحدثت ثورةً وضجّةً علميةً لم يعهد لها نظير في الفكر الأوروبي، وأصيب الايمان الأوروبي بنقص وفقدان حقيقي، وما يزال تأثيرها إلى عصرنا الحاضر.

إنّ أصل النظرية بيولوجية، وترى أنّ الحياة ظهرت على شكل بروتوبلازم، والأصل والأساس لجميع الكائنات كائن أحادي الخلية؛ لذلك يعتقد تشارلز داروين بأنّ جميع الكائنات ذات الملاين من الخلايا المعقّدة وذات الدقّة والرتبة العالية جاءت من هذا الكائن البسيط ذي الخلية الواحدة والمرتبة الدانية، وبان نشوء وتطوّر الحياة في الكائنات العضوية من البساطة والسهولة إلى التعقيد والدقّة، وهذا يتمّ بالتدريج والتطوّر الرتبي، فالكائن العضوي ينتقل من أدنى المراتب وأحطّها إلى أعلى المراتب وأرفعها، فهذا الكائن بسيط الخلية ينشطر إلى قسمين عشوائيًّا، ومن خلال قانون الانتقاء والانتخاب الطبيعي لطفرات الموروثة وبقاء الأنسب، تقوم الطبيعة بانتخاب الأصلح الذي له قابلية للحياة، وترمي بغير الأنسب ولا تنتخبه، ونتيجة هذا قامت الأنواع بالنموّ والتدرّج من رتبة إلى رتبة أخرى، ومن مرتبة إلى مرتبة أخرى، ومن بساطة إلى تركيب وتعقيد ودقّة، فبعد الكائن ذي الخلية الواحدة ظهرت كائنات ذوات خلايا وثمّ تطوّرت إلى الديدان التي من خلالها نشأت الرخويات مثل الحبّار والمحّار والحلزون، وتطوّرت إلى درجة أعلى، ونشأ منها الشوكيّات كقناديل البحر، ونجم البحر، ثمّ القشريات كالسراطين، ومنها الفقريات، ثمّ الأسماك والضفادع، ونشأ منها الزواحف كالتماسيح والأفاعي، ومنها نشأت الطيور، ثمّ الثديّيات، وبعدها مرحلة أشدّ تطوّرًا وهي الكناغر ذوات الأكياس، ثمّ إلى القرود التي سماها الصعابير أو الليامير (Lemurs)، ومن هذه نشأ الإنسان، والقرد مرحلة متطوّرة لكائن بسيط، والإنسان النسخة والتطوّر الأخير للقرد، وهذه الأنواع التي نمت جاءت من التكيّف والملاءمة مع الطبيعة ومصارعة الكوارث والظروف الصعبة. [انظر: القرطاس، نظرية داروين بين مؤيّديها ومعارضيها، ص 44؛ داروين، أصل الأنواع، ص 45 و46]

ووقع في هذه النظرية اختلاف كثير، حيث يمكن أن يقال إنّ داروين لا يعتقد بأنّ أصل الإنسان هو القرد، بل إن الإنسان والقرد لهما أصل مشترك، وعلى أي حال، فإنّ هذه النظرية صارت سببًا لعزل الدين عن الدولة وتشكيل الحكومات العلمانية، ومن آثار هذه النظرية انهيار العقيدة الدينية وظهور الإلحاد، والسبب في ذلك الانشطار العشوائي وقانون الانتخاب الأعمى، والصدفة؛ لأنّ الطبيعة عمياء وليس فيها تدبير ولا علم؛ لذلك تختار بالصدفة، ومن دون سبب، ومن هذا لا توجد حاجة للإله؛ لأنّ الطبيعة هي من خلقت الكون، يذكر ريتشارد دوكنز (Richard Dawkins) الذي يعدّ زعيم الملحدين في العصر الحالي في كتابه "الداروينية الجديدة.. صانع الساعات الأعمى": «الانتخاب الطبيعي

هو صانع ساعات أعمى، أعمى لأنّه لا يرى أمامًا، ولا يخطّط النتائج، وليس له هدف يراه» [دوكنز، الداروينية الجديدة صانع الساعات الأعمى، ص 45]. ومن هذا عدّ هذا السبب من أهمّ الأسباب لظهور العلمانية، يقول الدكتور سامي عامري: «ويعتبر مذهب التطور الداروينى المسألة العلمية الوحيدة التي هزّت إيمان جماهير الناس بالدين في الغرب، وهو المذهب الذي علا صداه نهاية القرن التاسع عشر؛ أي: بعد رسوخ التأصيل الفلسفي للعلمانية في المكتبة الغربية» [عامري، العلمانية طاعون العصر، ص 66]. وشهرة النظرية ليست شهرةً علميةً فقط، بل وراءها قوًى عظمى واستغلال من بعض النفوس المغرضة؛ ولذلك ترى عالم الأحياء والاس (شريك داروين في اكتشاف النظرية) غير معروف عند الناس، وهو يقول: «إنّ وراء عملية التطوّر قوّةً مدبّرةً» [العوايشة، موقف الإسلام من نظرية ماركس للتفسير المادي للتاريخ، ص 608].

المحور الخامس: نقد الأسباب للفكر العلمانية

تقدّم منّا عدّة أسباب لنشوء الفكر العلمانية، وما يهمّنا منها السبب المهم والأساسي في ظهور هذا الفكر، ألا وهو نظرية التطوّر وعلاقتها بالفكر العلمانية، ومن هنا نقول إنّ نظرية التطوّر ليس لها أيّ علاقة بالإلحاد، ولا بقصاء الدين والحكم الديني للدولة، وذلك أنّ داروين صبّ كلّ جهده لإنكار نظرية تعدّد الأنواع، وقال إنّ نشوء كلّ الكائنات الحيّة من نوع واحد بسيط، ثمّ من خلال الانشطار العشوائي تكثّرت كلّ الأنواع، ومن خلال الانتخاب الطبيعي تختار الطبيعة الأجدر بالبقاء، وهذا الكلام يقع بعد نشأة الكون ووجود الكائن البسيط، ويمكن أن يكون نقيضًا لبرهان التصميم العظيم أو برهان صانع الساعات، لكنّ هذا البرهان ليس هو الدليل الوحيد على إثبات الصانع، بل توجد براهين كثيرة، تدلّ على وجود الإله والخالق، كبرهان الحدوث والإمكان، وصياغته بشكل مختصر كالتالي، بأنّ العالم ممكن وكلّ ممكن يحتاج إلى علّة، فالعالم يحتاج إلى علّة، وأيضًا أشرف وأفضل برهان على إثبات واجب الوجود برهان الصدّيقين، ومفاده أنّ كلّ موجود عين الفقر والربط بعلّته؛ لأنّه وجود رابط ليس له أيّ استقال من دون علّته، فثبت أنّ العالم الموجود يحتاج إلى علّةٍ مقوّمةٍ له وجودًا وبقاءً، ومع هذا يمكن أن يقال إنّ الصدفة التي يذكرونها في الداروينية محالة، بأنّ الأجدر بالبقاء انتخبته الطبيعة الصمّاء العمياء بالصدفة، وذلك يمكن أن يرد احتمال الصدفة لو كان الأمر لمرّة واحدة، مثلًا طفل رسم لمرّة واحدة على الورقة حصان، لكنّ لو تكرّر هذا الأمر مرّاتٍ عديدةً وكثيرةً لا يمكن أن نقول إنّ

الطفل ليس بعالم وقادر، ومن هذا لا يمكن للطبيعة أن تخلق هذا النظم الدقيق بالصدفة؛ لأنّها مادّة صمّاء وعمياء، فلا ينتج منها هذا النظم والتصميم البديع المتكرّر، فثبت للعالم منظم وصانع عالم وقدير وحكيم، ومن هذا نحصل على نتيجة مفادها أنّ الداروينية ليس لها علاقة بالدين لا من قريب ولا من بعيد. [انظر: الطباطبائي، بداية الحكمة، ص 67؛ نهاية الحكمة، ج 1، ص 245]

المحور السادس: المباني المعرفية للفكر العلماني ونقدها

أوّلًا: المنهج الحسّي

المنهج والأداة المعرفية الأساسية في الفكر العلماني المنهج الحسّي المادّي، وأصحاب هذا المنهج يرفضون كلّ شيء غير مدرك بالحسّ والمنهج والتجريبي، فالوجود عندهم مساوٍ للحسّ والمادّة، والإنسان هو هذا الجسم المادّي، وأمّا روحه وعقله فهي أشياء خرافية، وأيضًا الإله والملائكة والتجرّد وعالم العقول لا يمكن إدراكها؛ لأنّها خارج نطاق وحدود المنهج الحسّي التجريبي، يقول عالم البيولوجيا ريتشارد لونتن (Richard Lewontin) في مقال نشر له عام 1997 تحت عنوان "الأزمة العلمية المادّية": «إنّ رغبتنا في قبول دعاوٍ علمية تصادم البداهة هي المفتاح لفهم الصراع الحقيقي بين العلم وما هو فوق طبيعي. لقد انحزنا لجانب العلم رغم السخافة الظاهرة لبعض بنيانه، وعلى الرغم من إخفاقه في تحقيق العديد من وعوده المسرفة بالنسبة للصحّة والحياة، ورغم تسامح المجتمع العلمي في قبوله أمورًا غير مثبتةٍ؛ لأنّنا نحمل التزامًا مبدئيًّا، التزامًا بالخضوع للمادّية، ليست مناهج العلم ولا مؤسّساته هي التي تلزمنا بصورة ما بقبول تفسير مادّي لهذا العالم المذهل، وإنّما على العكس من ذلك، نحن ملزمون سلفًا بولائنا للأسباب المادّية لخلق هامش للبحث ومجموعةٍ من المفاهيم التي تنتج تفسيراتٍ ماديةً، مهما خالف ذلك البداهة».

[Richard c. Lewontin, Billions and Billions, in The New York Review of Books, p.28]

وبين الأمر بوضوح وصراحة هوليوك (Geroge Holyoake)، حيث قال: «إنّه سواءٌ أكانت هناك منفعة خارج هذا العالم أم لا؛ فإنّ الإنسان ملزم بتحصيل المنفعة الموجودة في العالم الدنيوي؛ فالجهد الإنساني يجب ألّا يتوجّه إلى البحث عن غايات وراء العالم» [Geroge Jacob Holyoake, English secularism,p.30]، ويقول في نص آخر: «ولّى زمن الصلاة من أجل الخلاص الدينوي ... من الواضح

أنّ العون الوحيد المتاح للإنسان والسند الوحيد الذي من الممكن الاعتماد عليه هو العلم» [المصدر السابق].

وما تقدّم لا يمكن قبوله؛ وذلك لأنّه ثبت في علم الإبستمولوجيا أنّ الحس لا يدرك من الوجود والعالم إلّا الظواهر، ولا يجيب على أسئلة الإنسان الكبرى عن المبدإ والمعاد ولا السعادة والأمور المعنوية؛ لأنّ المعرفة الحسّية تتعلّق فيما يقع أمامها، ولا تدرك خارجًا عنه، وهو يدرك الأمور المفردة دون الحكم عليها؛ لأنّ التصديق حكم والحكم للعقل وليس للحسّ؛ ولهذا إدراك الحسّ لا يوصف بالصواب والخطإ، والإنسان من خلال حسّه يدرك الأعراض والكيفيات الظاهرية للأجسام كالألوان والروائح والأشكال والليونة والخشونة، وما سوى ذلك فهو غير مدرك له، كقانون العلّيّة أو ضرورة وجود المعلول عند وجود علّته؛ لأنّها معانٍ عقلية خارجة عن أفق الحسّ، وأيضًا المعرفة الحسّيّة محدودة وضيّقة، فهي لا تدرك إلّا الأشياء في مكان وزمان وجهة خاصّة، ومن هذا فإنّ المعرفة الحسّية جزئية، فتدرك موضوعًا خاصًّا، سواءٌ كان مبصرًا أو مسموعًا أو مشمومًا أو ملموسًا أو متذوّقًا، وأهمّ خصوصية في المعرفة الحسّية، ارتباطها المباشر بالخارج، فلو انقطع الحسّ للحظة واحدة عن الخارج يتلاشى الإدراك الحسّي، ويتحوّل إلى صور خيالية. [انظر: جوادي آملي، نظرية المعرفة في القرآن الكريم، ص 126؛ سبحاني، نظرية المعرفة، ص 165]

وأيضًا التجربة فهي لا تدرك إلّا ما كان مشاهدًا، ولا تفيد اليقين إلّا من خلال قياس عقلي، يقول الحكيم السبزواري: «العلم في التجربة منوط بأمرين: أحدهما: المشاهدة، والآخر القياس الخفيّ، وهو لو كان اتّفاقيا لما كان دائميًّا ولا أكثريًّا، ثمّ يستثنى نقيض التالي لنقيض المقدّم» [السبزواري، شرح المنظومة، ص 90]. إذن التجربة تختصّ بالمحسوسات، وحدودها محدودة بحدود الحسّ، ولا يمكن أن تتعدّى حدودها إلى كشف ما وراء الطبيعة، بل عملها هو كشف الظواهر والكيفيات المحسوسة.

ثانيًا: الأنسنة (Humanism)

قام الفكر العلماني بإقصاء الإله من خلال ما اعتمد عليه من فكرة الأنسنة (**Humanism**)، حيث عرّفت بأنّها: «ثمرة لعصر التنوير والانقلاب على الرؤية اللاهوتية للعالم والإنسان، أي ثمرة رؤية دنيوية ومحصّلة فلسفة علمانية ودهرية، بهذا المعنى فإنّ الأنسنة هي الوجه الآخر للعلمنة، فما أنجزته

الحداثة الغربية هو أنّها أحلّت سيادة الإنسان وسيطرته على الطبيعة محلّ الذات الإلهية وهيمنتها على العالم، وذلك على عكس ما كان سائدًا في القرون الوسطى، من خلال استقلالية الذات البشرية وتحرير عقلها أو روحها» [علي حرب، الماهية والعلاقة (نحو منطق تحويلي)، ص 214]. وتنكر الأنسنة ما وراء الطبيعة، ولا توجد حياة أخرى غير الدنيا، وتوكّد على الحرية الفردية في قبال الحرّيّة الدينية [انظر: المسيري، العلمانية الجزئية والشاملة، ص 36 و48]، وأيضًا من خلال الفكر العلماني الذي هو قائم على فصل الدين عن الحياة ظهر الدين الطبيعي الربوبي الذي يعتقد بوجود الخالق لهذا الكون، لكنّه خلق الخلق وتركه إلى الطبيعية التي هي بدورها تدبّره؛ لأنّها تحتوي على نظام ميكانيكي داخلي، وهو بدوره مستغنٍ عن العناية والتدخّل الإلهي، والخالق لم يرسل الرسل ولم يبعث الأنبياء،؛ لأنّ إثبات نبوّة النبيّ يكون من خلال المعاجز، والمعاجز غير مقبولة؛ لأنّها تخالف قوانين الطبيعة الثابتة؛ لذلك يستحيل على الإله فعلها! وأيضًا يعتقدون بأنّ الأديان من صنع البشر. [انظر: عامري، براهين النبوّة، ص 31؛ الخشن، عالم دون أنبياء.. دراسة نقدية في الفكر الربوبي، ص 46]

ما تقدّم غير سليم، فإذا مات الإله، قد يصبح كلّ شيء مباحًا، ويكون الإنسان هو المعيار والميزان، وإنّ الحقيقة تصنع ولا توجد، ويصبح الدين المتحكّـم في الناس هو السوق، وقانونه الطلب للسلع الجيّدة وترك السلع الرديئة، ونتيجة ذلك صيرورة العالم غابةً، والمنطق فيه منطق القوّة والغلبة للأقوى. نعم، الواقع المشهود في عالمنا المعاصر يشهد بالظاهر أنّ النظام هو المسيطر على المجتمعات الغربية، وأنّ العالم الإسلامي للأسف هو الذي يعيش الصراعات الدينية والطائفية، ولكنّ هذا لا ينبغي أن يثنينا عن نقدهم وكشف سلبياتهم الكثيرة وسيطرة الرأسمالية عليهم بسبب ابتعادهم عن العقل الإنساني الحقيقي، وتقدّم في نقد المنهج الحسّيّ، بأنّ المنهج المتّبع في الفكر العلماني الأنسني عاجز عن البحث في خارج حدوده وقيوده؛ فلهذا لا يمكن له أن ينفي الحياة الأخروية ولا الإله ولا الأمور الوجدانية، وإنّه من دون التعاليم الإلهية عاجز عن إدراك الحقائق والوصول إليها، وأيضًا العقل التجريبي كما يعتقد به الربوبيون، لا يمكن له أن ينفي عدم تدخّل الإله في العالم؛ لأنّه ليس من شأنه؛ لأنّ حدّ التجربة الظواهر الحسّيّة والمشاهدات، فيكون عدم تدخّل الإله من المعرفة الميتافيزيقية الخارجة عن حدود التجربة، وإثبات تدخّل الإله وعدم تدخّله من أبحاث الفلسفة والفلاسفة، وهو ثابت عندهم ودليلهم عليه باختصار، أنّ حاجة المعلول إلى العلّة الإمكان، والإمكان لازم للماهية حدوثًا وبقاءً، ونتيجة

ذلك يستحيل انفكاك المعلول عن علّته للحظةٍ من اللحظات. [انظر: الطباطبائي، بداية الحكمة، ص 67؛ نهاية الحكمة، ج 1، ص 245]

وكذا الحرّيّة من دون قوانين الإله الذي يعلم ماذا يحتاج الإنسان وما لا يحتاج عبث، ونتيجتها الفساد؛ لأنّ الإنسان هو المعيار، فتكون جميع أحكامه فرديةً وجزئيةً شخصيةً. [انظر: الطباطبائي، تفسير الميزان، ج 1، ص 368]

إنّ المعاجز كما ثبت في علم الكلام والفلسفة غير خارقة لقوانين الطبيعة الثابتة، فهي معلولة لعلّة؛ لأنّ كلّ معلول يستحيل أن يوجد بلا علّة، ولكن توجد علل معروفة ومعتادة للبشر، كالحرارة لإحراق هذه الورقة، وتوجد علل غير معروفة ومعتادة كعلل المعاجز، ومن هذا فجميع معاجز الأنبياء داخلة تحت قانون العلّيّة والمعلولية. [انظر: السبحاني، محاضرات في الإلهيات، ص 254]، وأيضًا ثبت بأنّ الإله أرسل الرسل وبعث الأنبياء، وذكروا على ذلك عدّة أدلّة، نذكر أحدها باختصار، وهو أنّ الإنسان مدني بالطبع، أي لا بد أن يعيش في داخل المجتمع، وكلّ إنسان مفطور على حبّ ذاته ونفسه؛ لذلك يريد أن يجعل كلّ شيء ملكةً ويختصّ به، وهذا يؤدّي إلى التجاوز والميل على حقوق الآخرين، فلا بدّ من قانون يحكم وينظّم هذه العلاقات، وأن يكون هذا القانون دقيقًا وعادلًا لجميع البشر وفي جميع الظروف والأحوال، ونتيجة ذلك لا يمكن أن يكون القانون من صنع البشر؛ لأنّ جميع البشر يخطئون، وهم بالفطرة يحبّون ذواتهم، فوجب أن يكون القانون من جهة تختلف نوعًا عن البشر، وهو الله تعالى، وأنزل هذا القانون على أنبيائه عليهم السلام المؤيّدون بالمعجزة منه. [انظر: الحلي، كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد، ص 468؛ العبادي، أصول الدين في تفسير الميزان، ج 2، ص 44؛ مصباح اليزدي، دروس في العقيدة الإسلامية، ص 211]

ثالثًا: النسبية

وأيضًا من نتائج القول بالعلمانية النسبية المعرفية، ومن هذا عرف الدكتور العلماني مراد وهبة العلمانية بأنّها: «التفكير النسبي بما هو نسبي وليس بما هو مطلق» أي: «تناول الظواهر الإنسانية التي هي نسبية بالضرورة بمنظور نسبي وليس بمنظور مطلق» [مراد وهبة، الأصولية والعلمانية، ص 85]، فمن خلال موت الإله وفصل الدين عن الدولة وصيرورة الإنسان إلهًا، أصبحت النسبية المنهج الذي يعتمد

عليه أتباع العلمانية والأنسنة، يقول بابا الكنيسة السابق بندكت السادس عشر (Pope Benedict XVI): «إنّ النسبية غدت الفلسفة الغالبة، والإشكال الأكبر للإيمان في زماننا».

[Benedict XVI, Truth and Tolerance: Christian Belief and World Religions, San Francisco, p.117]

ولكنّ هذا الكلام لا يمكن قبوله؛ لأنّ الإنسان إذا صار المعيار والميزان للمعرفة، فتكون القوانين فرديةً وجزئيةً وتابعةً للآراء الشخصية والذوقية، ولما يحمله المفكّر من أيديولوجيا ثقافية وفكرية، ونتيجة هذا فقدان الثبات والإطلاق بالمعرفة، وفقدان الصدق بالمعرفة؛ لأنّه لا يمكن أن نكذّب الآخر إن خالفنا في تفكيره ونيله للواقع؛ لأنّ كلّ مفكّر وبحسب استعداده يرى جانبًا معيّنًا من الحقيقة، والآخر كذلك يرى جانبًا آخر، ومن هذا تتعدّد الحقيقة، ويصبح الواقع حقائق متعدّدةً ومتباينةً فيما بينها، وأيضًا الشكّ؛ لأنّ أيّ إنسان لا يثق في معارف الآخرين؛ وذلك لأنّه ينظر من جهة والآخر ينظر من جهة أخرى، ووصل الحال بأصحاب هذا القول بتهمة من يعتقد بالحقيقة المطلقة والثابتة بالتعصّب والجهل، وأيضًا النسبية لا تصلح لأن تكون منظومةً معرفيةً لإنشاء رؤية كونية عقدية؛ لأنّ الاعتقاد لا يتحقّق إلّا من خلال اليقين بالمعنى الأخصّ، الذي فيه نفي احتمال الطرف المقابل، حتّى لا يبقى أيّ شكٍّ في العقيدة، وهذا محال التحقق في النسبية؛ لأنّ المعرفة فيها قائمةٌ على ذات المفكّر الجزئية، ونتيجة ذلك الظنّ، الذي لا يغني ولا يسمن في الرؤى الكونية الاعتقادية. [انظر: الفارابي، المنطقيات، ج 1، ص 267؛ ابن سينا، برهان الشفاء، ص 51؛ المظفر، منطق المظفر، ج 1، ص 18]

ولم تقف النسبية على الإبستمولوجيا وحسب، بل تعدّت ووصلت إلى الاخلاق، وجعلت المبدأ الأخلاقي في العالم الغربي في أزمة، وأصبحت الأخلاق عبارة عن البحث عن اللذّة والمتعة، يقول أحد الكتاب: «عندما تضيق على الأخلاق لتحصر في الأذواق الشخصية، يتبادل الناس السؤال الأخلاقي: ما الأمر الحسّيّ؟ ولمسألة المتعة: ما الشيء الممتع؟ إنّهم يثبتون رغباتهم، ثمّ يحاولون عقلنة اختياراتهم بلغة أخلاقية. وعليه ففي هذه الحال، يكون الذيل هو الذي يهزّ الكلب. وبدل أن تقيّد الأخلاق المتع (أرغب في أن أقوم بذلك الشيء، ولكن عليّ ألّا أفعله)، تُعرّف المتع الأمور الأخلاقية (أرغب في أن أقوم بذلك الشيء، وسأجد وسيلةً لجعله صوابًا). هذا الجهد في صنع القرار الأخلاقي ليس إلّا إخفاءً للمصلحة الذاتية بغلالةٍ رقيقةٍ. المتعة هي المنطق الأخلاقي».

[Francis J. Beckwith and Gregory Koukl, Relativism: Feet Firmly Planted in Mid-Air, Grand Rapids, pp.20-21]

الخاتمة والنتائج

1- العلمانية مبدأٌ يقوم على إنكار مرجعية الدين أو سلطانه في تنظيم شؤون الناس، بعضها أو كلّها، انطلاقًا من مرجعية الإنسان لإدراك الحقيقية والمنفعة الكامنتين في هذا العالم.

2- مرّت العلمانية بمرحلتين، الأولى المعتدلة والثانية المفرطة.

3- الأسباب التي أدّت إلى ظهور العلمانية منها صراع الكنيسة مع العلم، والثاني الثورة الفرنسية، والثالث نظرية التطوّر.

4- نظرية التطوّر ليس لها أيّ علاقة بالإلحاد ولا تؤدّي إلى فصل الدين وإقصائه عن الواقع والحياة.

5- المباني التي اعتمدت عليها العلمانية ونقدها، الأوّل المنهج الحسّي، والثاني الأنسنة، والثالث النسبية المعرفية والأخلاقية، وهي مباني غير تامّة ويمكن نقدها عقليًّا.

قائمة المصادر

ابن سينا، حسين بن عبد الله، الشفاء، ذوي القربى، قم المقدسة، ط 1، 1430 هـ.

أبو زهرة، محمد، النصرانية، الرئاسة العامة للدراسات والبحوث، الرياض، ط 1، 1404 هـ.

إسبينوزا، باروخ، رسالة في اللاهوت والسياسة، ترجمة حسن حنفي، دار التنوير، بيروت، ط 1، 2005 م.

الباز، محمدعلي، العلمانية.. جذورها وأصولها، دار القلم، سوريا، ط 1، 2008 م.

البعلبكي، منير، معجم أعلام المورد.. موسوعة تراجم لأشهر أعلام العرب والأجانب القدامى والمحدثين مستقاة من موسوعة المورد، دار العلم للملايين، بيروت، ط 1، 1992 م.

جريشة، علي، الاتجاهات الفكرية المعاصرة، دار الوفاء للنشر والتوزيع، المنصورة، ط 3، 1990 م.

الجهني، مانع، الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، دار الندوة العالمية، الرياض، ط 4، 1420 هـ.

جوادي آملي، عبد الله، نظرية المعرفة في القرآن، دار الصفوة، بيروت، ط 1، 1417 هـ.

الحلي، الحسن بن يوسف، كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد، تحقيق العلامة حسن زاده آملي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ط 1، 2012 م.

الحوالي، سفر، العلمانية.. نشأتها وتطوّرها وآثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة، دار الهجرة، المدينة المنورة، ط 1، 1999 م.

الخشن، حسين، عالم دون أنبياء.. دراسة نقدية في الفكر الربوبي، منارات، بيروت، ط 1، 2017 م.

الخولي، جمعة، الاتجاهات الفكرية المعاصرة وموقف الإسلام منها، دار الكتب العلمية، ط 1، 1986 م.

داروين، تشارلز، أصل الأنواع، ترجمة: إسماعيل مظهر، مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة، ط 1، 2017 م.

ديورانت، ويليام جيمس، قصة الحضارة، ترجمة: الدكتور زكي نجيب محمود وآخرين، دار الجيل، بيروت، ط 1، 1988 م.

دوكنز، ريتشارد، الداروينية الجديدة (صانع الساعات الأعمى)، ترجمة: د. مصطفى إبراهيم فهمي، دار العين للنشر، القاهرة، ط 2، 2003 م.

سبحاني، جعفر، محاضرات في الإلهيات، أضواء الحوزة، بيروت، ط 1، 2010 م.

سبحاني، جعفر، نظرية المعرفة، مؤسّسة الإمام الصادق عليه السلام، قم المقدسة، ط 1، 1437 هـ.

السبزواري، هادي بن مهدي، شرح المنظومة، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ط 1، 2011 م.

سروش، عبدالكريم، مدارا و مديريت، صراط، طهران، چاپ يكم، 1388 ش.

السني، محمد، الثورة وبريق الحرية، الأدهم للنشر والتوزيع، القاهرة، ط 1، 2017 م.

أحمد شبلي، المسيحية، دار النهضة المصرية، مصر، ط 10، 1998 م.

الطباطبائي، محمدحسين، الميزان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط 1، 1997 م.

الطباطبائي، محمدحسين، بداية الحكمة، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ط 1، 2009 م.

الطباطبائي، محمدحسين، نهاية الحكمة، تحقيق غلام رضا الفياضي، انتشارات مؤسسة الإمام الخميني ﷺ، قم المقدسة، ط 5، 1388 ش.

عامري، سامي، العلمانية طاعون العصر (كشف المصطلح وفضح الدلالة)، تكوين، الخبر ـالسعودية، ط 1، 2017 م.

العبادي، علي حمود، أصول الدين في تفسير الميزان، مؤسسة الكوثر للمعارف الإسلامية، قم، ط 1، 2009 م.

على حرب، الماهية والعلاقة.. نحو منطق تحويلي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط 1، 1998 م.

العوايشة، أحمد، موقف الإسلام من نظرية ماركس للتفسير المادي للتاريخ، المكتبة الإسلامية، عمّان، ط 2، 1984 م.

الفارابي، محمد، المنطقيات، مكتبة سماحة آية الله العظمى المرعشي النجفي، قم المقدسة، ط 2، 2012 م.

سيد أحمد فرج، جذور العلمانية، دار الوفاء للطباعة والنشر، المنصورة، ط 3، 1987 م.

القرطاس، قيس، نظرية داروين بين مؤيديها ومعارضيها، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 1، 1971 م.

قطب، محمد، مذاهب فكرية معاصرة، دار الشروق، القاهرة، ط 7، 1993 م.

القفاري، ناصر، الموجز في الأديان والمذاهب المعاصرة، دار الصميعي، الرياض، ط 1، 1992 م.

كمال، مظهر أحمد، النهضة، منشورات وزارة الثقافة والفنون، بغداد، ط 1، 1979 م.

لوك، جون، رسالة في التسامح، ترجمة: منى أبو سنة، المشروع القومي للترجمة، القاهرة، ط 1، 1997 م.

المسيري، عبد الوهاب، العلمانية الجزئية والشاملة، دار الشروق، القاهرة، ط 1، 2002 م.

المسيري، عبد الوهاب، العلمانية تحت المجهر، دار الفكر، بيروت، ط 1، 2000 م.

المظفر، محمدرضا، منطق المظفر، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ط 1، 2006 م.

هوبزباوم، إريك، عصر الثورة أوروبا (1989ـ1884)، ترجمة: د. فايز الصياغ، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط 1، 2007 م.

فولتير، قاموس فولتير، ضمن سلسلة تراث الإنسانية، دار الرشاد الحديثة، الرباط، ط 1، 1994 م.

وهبة، مراد، الأصولية والعلمانية، دار الثقافة، القاهرة، ط 1، 1995 م.

مصباح اليزدي، محمد تقي، دروس في العقيدة الإسلامية، مؤسسة الهدى للنشر والتوزيع، قمّ المقدسة، ط 5، 1427 هـ

Refrence

Holyoake, George Jacob, the Oringin and Nature of Secularism, London: Watts and Co, 1896.

What Went Wrong? The Clash between Islam and Modernity in the Middle East York, 2003.

Richard c. Lewontin, Billions and Billions, in the New York Review of Books, January 9, 1997.

Benedict XVI, Truth and Tolerance: Christian Belief and World Religions, San Francisco: Ignatius press, 2004.

Francis J. Beckwith and Gregory Koukl, Relativism: Feet Firmly Planted in Mid-Air, Grand Rapids, Mich: Baker Books, 1998.